بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٥-١٦٨) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ} وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم {قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا} يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً، {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} أي من أين جرى علينا هذا؟، {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه فأنزل الله: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] **بأخذكم الفداء".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

يقول تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] سبق الكلام أن الراجح في القرح الذي وقع بالمشركين هو ما حل بهم يوم بدر.

والرواية التي ذكرها الحافظ هنا عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهي قوله: **"لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر"** فهذا في تفسير قوله -تبارك وتعالى- هنا: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك حينما عصى الرماةُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلوا عن الجبل -أعني الرماة- لأخذ الغنيمة، فقوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم ومخالفتكم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وبعضهم يقول: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: حينما أخذوا الأسارى والفداء منهم في يوم بدر، وأنهم خيروا بين أخذ الفداء وأن يقتل منهم مثل هذا العدد، فاختاروا أخذ الفداء، فهذا قول معروف، ولو صحت فيه الرواية أنهم خيروا هذا التخيير فيمكن أن يقال: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمران] أي باختياركم السابق ومعصيتكم اللاحقة التي وقعت في يوم أحد، وإذا لم تصح الرواية فإن الفداء قد أباحه الله -عز وجل- لهم، وبناء على ذلك فإن الذي تشير إليه الآية: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] هو معصيتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، والرواية التي إن صحت ليس المقصود بها ما جاء عن عمر -رضي الله عنه- وإنما هي الرواية التي ورد فيها التخيير والتي قالوا فيها: هؤلاء إخواننا...

وعموماً لو صحت هذه الرواية فيمكن أن يقال: إن قوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بأخذكم الفداء الذي اخترتموه سابقاً يوم بدر ومعصيتكم اللاحقة في يوم أحد، لأن الله -عز وجل- قال: {وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، قال سبحانه: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: صرفكم عنهم {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فقوله: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم، كما قال الله -عز وجل-: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [(٧٩) سورة النساء] وكما قال سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [(٣٠) سورة الشورى].

فعلى كل حال هذه الآية: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] تفسر بمثل هذه الآيات، لكن لو صحت هذه الرواية المذكورة كما سبق، فيقال هذا وهذا، فكل ذلك سبَّب لهم هذا المصاب.

"وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والربيع بن أنس والسدي: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: بسبب عصيانكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أمركم ألا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة".

وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم.

"{إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة في ذلك".

الإذن في قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [(١٦٦) سورة آل عمران] هو الإذن الكوني القدري قطعاً؛ لأن الله -عز وجل- لا يحب الكافرين، ولا يحب ظهورهم على أهل الإيمان، وإنما لحكمة قد يديل الكفار على المسلمين وينزل بالمسلمين ما ينزل من المكاره والمصائب وغلبة العدو وما أشبه ذلك، فهذه إرادة كونية لا تقتضي المحبة، وإنما التي تقتضي المحبة هي الإرادة الشرعية، فقوله: {فَبِإِذْنِ اللّهِ} يعني كوناً وقدراً حيث خلى بينكم وبين عدوكم فغُلبتم؛ لأنه لا يقع في حكم الله إلا ما يريد، ولو شاء لم يحصل ذلك.

"{وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا".

المقصود بعلم الله في نظائر هذا هو علم تحقق الوقوع الذي يبنى عليه الجزاء، فالله يعلم المؤمنين من المنافقين ليجازي كلاً بعمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] **يعني أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين، يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: {أَوِ ادْفَعُواْ}.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثِّروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا".

على كل حال هو ذكر القتال وما الذي يقال غير القتال من عون المسلمين بحضورهم للمعركة كتكثير السواد، فيرهب بذلك العدوُّ جانبَ المسلمين وما أشبه ذلك مما يحصل بالاجتماع، أو ادفعوا بما تستطيعون غير القتال على الأقل بنفقاتٍ ودعاء وتحريض وما أشبه ذلك بكل مستطاع.

قوله: {قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] المتبادر من معناها أنه: لن يحصل هناك قتال، فكل المؤشرات تدل على أنه لن تقع معركة فلا داعي أن نخرج، وبعضهم يقول: إن معنى: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً} يعني نحن لا نحسن القتال فاعذرونا فلسنا من أهل الحرب وأهل القتال، وليس ذلك من عملنا، وإنما الذين يحسنونه هم الذين يخرجون إلى العدو.

ويحتمل أن يكون معنى {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً} أي: لو نعلم لنا محلاً للقتال ومكاناً في المعركة لاتبعناكم، ولكن هذا بعيد جداً، فهو أبعد من الذي قبله، والظاهر المتبادر -والله أعلم- أن المعنى أنه لن يكون هناك قتال" وبناء عليه لا داعي للحضور.

"فتعللوا قائلين: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً، قال الله -عز وجل-: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} [(١٦٧) سورة آل عمران] استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} [(١٦٧) سورة آل عمران]".

هذا كما في الحديث: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً))[1] أي تتقلب به الأحوال في يومه وليلته.

"ثم قال تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته".

هنا أضاف القول إلى الأفواه مع أن القول إنما يكون بالأفواه، فكما أنه يدل على التوكيد في مثل هذه المقامات فكذلك يدل هنا على أن مثل هذا القول لا يجاوز الأفواه، كما قال الله -عز وجل- في سورة النور: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [(١٥) سورة النـــور] فهو قول لا يجاوز الأفواه، فهو إفك وكذب مفترى لا حقيقة له في أرض الواقع، وإنما هو شيء يتفوه به الناس دون أن يكون له حقيقة.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) (ج ١ / ص ١١٠) وأحمد (١٨٤٢٨) (ج ٥ / ص ٣٩٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"ومنه قولهم هذا: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين وأنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [(١٦٧) سورة آل عمران].

وقوله: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول".

مثل هذا التعبير يدل على أنه ممن نزلت فيه الآية، وإلا فالآية أعم من هذا، فكل من قال هذه المقالة فهو داخل في هذا، فأشرافهم وسراتهم في هذا سواء..

"{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٦٩-١٧٥) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبد الله -رضي الله تعالى عنه- عن هذه الآية: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [(١٦٩) سورة آل عمران] فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))[2] وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما-".

هذه الآية تفسرها الآية الأخرى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٤) سورة البقرة] فتلك الآية تفسر هذه، وتبين أن هذه الحياة التي يحياها الشهداء لا تدخل تحت إدراكنا،

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧) (ج ٣ / ص ١٥٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذلك قال: {وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٤) سورة البقرة] لأن الشعور المقصود به الإدراك فإذا ارتفع شعور الإنسان معنى ذلك أنه ارتفع إدراكه، فنحن لا نشعر بهذا ولا ندرك طبيعة هذه الحياة، لما حجب عنا في هذه الدنيا، من هذه الأمور الغيبية، فهي حياةٌ الله -عز وجل- أعلم بها لا تدخل تحت نطاق شعورنا، لكنهم أحياء والله يقول: لا تقولوا أمواتاً إنما هم أحياء، لكن ذلك لا يدخل تحت إدراككم، يعني لمّا أزهقت نفوسهم في سبيل الله وحصل لهم هذا التلف في الأبدان وبذلوا المُهج عوضهم الله -عز وجل- الحياة الكاملة التي لا تقارن بهذه الحياة، فإذا رأوا ذلك تمنوا أن يرجعوا فيقتلوا، وهذه هي أمنيتهم الوحيدة.

"**وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة))**[3] [انفرد به مسلم]".

هنا يقول: **((لها عند الله خير))** ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] قال ابن عباس –رضي الله عنهما-: "ما من أحد يكون عليه حق لله تعالى -يعني في المال- لا يؤديه إلا تمنى الرجعة عند الموت"، فقالوا له: اتق الله يا ابن عباس فإنه لا يتمنى الرجعة أحد له خير عند الله إلا الشهيد، فقرأ عليهم ابن عباس هذه الآية: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] فالإنسان المقصر في الحقوق المالية يتمنى أن يرجع ليتصدق ويبذل.

"**وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن متقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله -عز وجل-: أنا ابلغهم عنكم، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآيات: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} وما بعدها))**[4] **هكذا رواه أحمد، وكذا قال قتادة والربيع والضحاك أنها نزلت في قتلى أحد.**

وروى أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: نظر إليَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم فقال: ((يا جابر ما لي أراك مهتماً)) قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً، قال: فقال: ((ألا أخبرك، ما كلم اللهَ أحدٌ قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كَفاحاً)) قال علي: الكَفاح المواجهة".

يعني أنه كلَّمه مباشرة من غير واسطة، وظاهره أن ذلك من غير حجاب أيضاً.

---

3 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٧) (ج ٣ / ص ١٤٩٨).

4 - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في فضل الشهادة (٢٥٢٢) (ج ٢ / ص ٣٢٢) وأحمد (٢٣٨٨) (ج ١ / ص ٢٦٥) والحاكم (٢٤٤٤) (ج ٢ / ص ٩٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٥٢٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"((قال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب -عز وجل-: إنه قد سبق مني القول: أنهم إليها لا يرجعون، قال: أي ربِّ فأبلغ من ورائي)) فأنزل الله: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا} الآية[٥].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء..))".

بعضهم يفسر قوله: ((على بارق نهر)) يعني أول النهر ومطلع النهر ومبتدأ النهر عند باب الجنة أي الموضع الذي يلوح فيه النهر أو يبرق فيه النهر عند باب الجنة، وكأنه يكون له شيء من اللمعان والبريق والله أعلم.

"قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)) تفرد به أحمد وقد رواه ابن جرير وهو إسناد جيد[٦]".

وحسنه أيضاً الذين حققوا مسند الإمام أحمد، وعلى كل حال هذا الحديث مع الأحاديث الأخرى التي تذكر أنهم في حواصل جوف طير خضر تأوي إلى قناديل.. إلى آخره يمكن أن يقال: إن هذا يختلف باختلاف أحوالهم، ربما يكون ذلك -والله أعلم- فبعضهم هكذا وبعضهم هكذا، وقد يكون لهم هذا وهذا فالله -عز وجل- على كل حال يكرمهم بألوان من النعيم أخبر عن بعضه في مثل هذه النصوص.

"وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم".

هنا ذكر وجهين للجمع بين هذا وبين أنها في أجواف طير، إما أن هذا يختلف باختلاف أحوال الشهداء فمنهم من يكون كذا ومنهم من يكون كذا، أو أن هذا من الأمور التي يعطيهم الله -عز وجل- إياها فهم في بعض الأطوار يكونون في أجواف طير خضر وقد يفضون إلى مكان كهذا يتنعمون به، فالله أعلم.

"وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها".

هنا يشير إلى بعض الأحاديث التي تذكر أن أرواح المؤمنين أيضاً في الجنة وأن ذلك لا يختص بالشهداء، ولكن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، وهذا هو الفرق، والله أعلم.

"بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور".

عالم الأرواح وكلام أهل العلم فيه وأين أرواح المؤمنين، هل هي على أفنية القبور أو في القبور أو في الجنة أو لها أحوال تنتقل في العالم العلوي وترجع إلى القبور أو غير ذلك، إذا نظرت إلى الأدلة تجد منها ما يدل

---

5 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠١٠) (ج ٥ / ص ٢٣٠) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٠) (ج ١ / ص ٦٨) وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم (٣٠١٠).

6 - أخرجه أحمد (٢٣٩٠) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أنه ينعم في القبر حيث يفتح له نافذة إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، وهناك أدلة يفهم منها أن أرواحهم في الجنة، وعلى كل حال هذه أمور غيبية، فقد يكون للأرواح أحوال وتنقلات مع اتصال بالجسد لا ندركه وهذا الاتصال لا تحصل به الحياة المعروفة لدينا في الدنيا من حركة الجسد فهذه أمور الله -عز وجل- أعلم كيف تكون.

"**وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم. اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد -رحمه الله- رواه عن محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- عن مالك بن أنس الأصبحي -رحمه الله- عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))**[٧]".

في هذا الحديث يذكر أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، وذكر هناك أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، فقوله: ((طائر يعلق)) من أهل العلم من أخذه بظاهره، وقال: إنها تكون بهذه المثابة، أي أنها تكون على هيئة طائر يطير في الجنة وليست في جوف طير خضر كأرواح الشهداء، فهؤلاء طائر يعلق في شجر الجنة، وأولئك في جوف طير خضر يأوون إلى قناديل معلقة بالعرش.

"**وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم**".

هذا الكلام لابن كثير يريد به تبيين المعنى المراد من الحديث وليس رواية أخرى، فهو فسرها بأنها تكون على هيئة طائر، وهذا قال به كثير من السلف، وبعضهم يقول: إن الروح طائر يعلق بأنهار الجنة، فقيل لها طائر بهذا الاعتبار، لكن الظاهر المتبادر هنا أنها تكون على صورة أو على هيئة طائر يعلق بأشجار الجنة، وابن القيم له كلام كثير في هذا من شاء فليراجعه.

"**وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان**".

يقول: "**فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين**" لأنها تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.

"**وقوله تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ} إلى آخر الآية** [(١٧٠) سورة آل عمران] **أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة**".

قوله في الآية: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧٠) سورة آل عمران] هل هم يستبشرون بمن سيقتل في سبيل الله أنه سيلحق بهم؟

---

[٧] - أخرجه أحمد (١٥٨١٦) (ج ٣ / ص ١٥٨١٦) وإسناده صحيح كما قال شعيب الأرنؤوط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا تحتمله الآية، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- كما أن الآية تحتمل معنىً آخر وهو أنهم يستبشرون بإخوانهم المؤمنين وما هم عليه من الإيمان وصلاح العمل؛ فهو الأمر الذي يفضي بهم إلى الجنة، فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا..

"وقد ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الذين قتلوهم يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع (أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)".

قوله: "**(أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)**" هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه.

"ثم قال تعالى: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران]، **قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسروا لمَا عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم".**

يعني هنا في قوله: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧١) سورة آل عمران] بعضهم يقول: النعمة ما ينعم الله به على عباده عموماً، والفضل هو الأمر الزائد، أو ما يتفضل الله -عز وجل- به عليهم، وبعضهم يقول: النعمة هي الثواب، وهذا لا يعارض الأول؛ لأن ما ينعَّمون به هو من الثواب، وعلى كل حال، فالاستبشار الأول الذي في قوله: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧٠) سورة آل عمران] هذا الاستبشار إنما هو بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، والاستبشار الثاني الذي في قوله: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧١) سورة آل عمران] أي أنهم يستبشرون بما حصل لهم من النعيم.

وعلى كل حال الآية: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] فيها قراءة أخرى متواترة وهي قراءة الكسائي بكسر همزة إن: (وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين)، فعلى القراءة الأولى التي عليها أكثر القراء: {وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] يكون ذلك من جملة ما استبشروا به، يعني: أنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجرهم، يعني من جملة ما يستبشرون به أن الله لا يضيع أجر المؤمنين، وعلى قراءة الكسر يكون ذلك من قبيل الاستئناف، ومعلوم أن الآية إن كان لها قراءتان فأكثر وكل قراءة لها معنىً يخصها فإن القراءتين بمنزلة الآيتين، فهم يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، والآية أيضاً على قراءة الكسر تقرر هذا المعنى وتؤكده؛ لأن "إنَّ" بمنزلة إعادة الجملة مرتين فهي للتوكيد.

وقوله هنا عن عبد الرحمن بن زيد: "**هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم**" أي لأنه قال: {وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران] سواء كانوا شهداء أو غير شهداء، هذا هو معنى الكلام.

يقول: "**سواء الشهداء أو غيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء**" هنا لم يذكر الأنبياء لكن معلوم أن حال الأنبياء أكمل من حال الشهداء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول: "**وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم**" هو هنا يريد أن يقرر أن ما يذكره الله -عز وجل- لأصحاب المراتب العالية من أهل الإيمان، كالأنبياء فالغالب أن الله يذكر ثواب عموم المؤمنين، وهنا لم يذكر الأنبياء لكن ذلك من باب التنبيه على معنىً يتكرر، فلما ذكر جزاء الشهداء ذكر جزاء عموم المؤمنين، أو ذكر معنىً يتصل بعموم أهل الإيمان، هذا هو معنى كلامه وإلا فالآية ليس فيها ذكر للأنبياء.

"**وقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [(١٧٢) سورة آل عمران] هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم وليريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- لما سنذكره.**

فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله -عز وجل- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-.

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبي عيينة -الشك من سفيان-".

قوله: "**فندب المسلمين فانتدبوا**" يعني حثهم على الخروج فخرجوا.

"**فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت تعد غزوة، فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** [(١٧٢) سورة آل عمران].

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} الآية، قلت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر -رضي الله تعالى عنهما- لما أصاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال: ((من يرجع في إثرهم؟))".

قالت: "**يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر**" عروة بن الزبير أبوه الزبير وجده أبو بكر الصديق لأمِّه، فأمه هي أسماء بنت أبي بكر، فهي أرادت إخباره أن أباه وجده من أمه كانا من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح.

"**فانتُدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير -رضي الله تعالى عنهما- هكذا رواه البخاري منفرداً بهذا السياق**[8].

وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} الآية [(١٧٣) سورة آل عمران] **أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به {وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** [(١٧٣) سورة آل عمران]".

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب:{الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [(١٧٢) سورة آل عمران] (٣٨٤٩) (ج ٤ / ص ١٤٩٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الآيات عظيمة جداً تحمل معانيَ كبيرة، ولو أن الناس تأملوا فيها لم يكن حال المسلمين على ما نحن عليه الآن، ومشكلة هؤلاء الذين يكذبون على الله -عز وجل- ليست مع شيء إلا مع القرآن، نعم مشكلتهم مع القرآن، فما عليهم إلا أن يخرجوا نسخة مختصرة يحذفون فيها كل هذه الآيات ليقولوا: الإسلام دينُ إذا لطمك على خدك الأيمن أدِر له خدك الأيسر.

هذه الآيات قدرها نحو ستين آية كلها تتحدث عن وقعة واحدة فقط، فيها ترغيب للمؤمنين بالجهاد، وحث لهم على نصرة دين الله -عز وجل-، وبعد ذلك يأتي من يكذب على الله -عز وجل- ويقول: الإسلام ليس فيه هذا، ويلفقون زوراً من القول بهتاناً وباطلاً يناقض صريح الإيمان؛ وذلك أنه في وقت الهزيمة تظهر قرون النفاق والمنافقين -لا كثَّرهم الله-.

ولا بد أن نعلم أن الجهاد شيء والسفه الذي يحصل هنا وهناك شيء آخر، فالجهاد الحقيقي الذي هو قتال أعداء الله -عز وجل-، فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة، لن يستطيع أحد أن يوقفه أو يبطله كائناً من كان، فالجهاد الحقيقي قائم وموجود في هذا الزمان وفي كل زمان، أما الانحرافات وما يحصل من الخروج عن الجهاد المشروع من بعض الذين ينتسبون إليه، فهؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم وجنايتهم على أنفسهم، وخطؤهم وانحرافهم مردود عليهم، لكن لا يلصق هذا بالإسلام ولا يلصق بالجهاد في سبيل الله -عز وجل- ويقال: هذا حال الجهاد، ليس هذا حال الجهاد وإنما هو نوع من الانحراف والإفساد في الأرض، وهذا ينبغي أن يعرفه الناس.

وما نسمع أحياناً من بيانات وتصريحات من بعض المنتسبين للجهاد الذين يحرضون فيه على شيء يحسبونه جهاداً فهذا نوع من الإفساد في الأرض وهو خروج عن مقتضى العقل والنقل، وإشاعة الفوضى والإفساد في الأرض، وهو مرفوض، لكن الجهاد الحقيقي -جهاد أعداء الله- فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة ولن يستطيع أحد أن يوقفه مهما اجتمع أهل الأرض؛ فعندنا أصل كبير في هذا وهو أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ونحن مطمئنون لهذا كل الاطمئنان، فينبغي أن نفرق بين هذا وبين غيره، فالناس بحاجة إلى هذا التفريق وإلى أن يعرفوا حقائق ما أنزل الله -عز وجل-؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق وتُرِك لكل كاتب ومزوِّر وأفَّاك أن يتكلم وينظِّر فمتى يعرف الناس الحق؟

كما أنه لا يصح السكوت أيضاً عن الخطأ والانحراف، وإنما على الإنسان أن يتكلم بعلم وعدل، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم بحق فليسكت ولا يتكلم بالباطل، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com